Al-Qasemi Journal of Islamic Studies, **volume 9, issue 1 (2025), 67-94**

جمال الدين الأفغاني: أفكاره الإصلاحية بين الهند ومصر

عيسى بريجية

Jamal al-Din al-Afghani: His Reformist Ideas between India and Egypt

Issa Baraijia[1]

Abstract

In the mid-19th century, the Islamic nation faced significant challenges marked by the decline of the Ottoman Empire and the growing influence of colonial powers in the Muslim world. These powers sought to dismantle the unity of the Islamic nation, spread ignorance and stagnation, and suppress the spirit of progress that forms the foundation of civilizations. Amidst these circumstances, Jamal al-Din al-Afghani emerged as one of the most prominent reform leaders. He dedicated his life to awakening the Islamic nation, resisting colonialism, and confronting oppressive local regimes. His mission was to revive the spirit of progress in the East and to cultivate a generation of leaders and intellectuals who worked to educate society and elevate it within the available means.

Jamal al-Din al-Afghani is considered a pioneer of the modern reform movement and one of the most prominent advocates for the unity of the Islamic nation. His vision was based on liberating the nation from colonialism, exploitation, and negligence while promoting a new awareness that enhances its civilizational standing. Through his ideas and efforts, he laid the groundwork for a political and intellectual framework that became the foundation for subsequent reform movements.

This research examines the life of Jamal al-Din al-Afghani and his reformative influence in the Islamic world. It is divided into three chapters: the first explores his biography, including his birth, origin, upbringing, and death. The second

[1] History Department, Theology Faculty, Ataturk University.

chapter focuses on the influence of his family, his education, and the political circumstances of his time. The third chapter delves into his reformative efforts, particularly his role in Egypt, addressing the political and economic conditions of the period, his views on resisting colonialism, and his perception of governance.

The study relied on a range of primary sources and references, notably The Complete Works of Jamal al-Din al-Afghani edited by Muhammad Amara, Al-Urwah al-Wuthqa by Jamal al-Din al-Afghani and Muhammad Abduh, and The Truth About Jamal al-Din al-Afghani by Mirza Lotfollah Khan Asad Abadi. During the preparation of this research, challenges arose in interpreting the original texts, which were sometimes characterized by ambiguity, as well as discrepancies among sources regarding his origin and homeland, which made it difficult to establish a definitive birthplace.

This study aims to provide a comprehensive view of Jamal al-Din al-Afghani's character, his reformative efforts, and his profound influence on modern Islamic thought, serving as a model for addressing contemporary intellectual and political challenges.

Keywords: Jamal al-Din al-Afghani, Islamic Reform, Colonial Resistance, Ottoman Decline, Unity of the Islamic Nation, Intellectual Awakening, Modern Reform Movements.

الملخّص

شهدت الأمة الإسلامية في منتصف القرن التاسع عشر تحديات جسيمة، تزامنت مع ضعف الدولة العثمانية وتكالب قوى الاستعمار على العالم الإسلامي. سعت هذه القوى إلى تفكيك وحدة الأمة الإسلامية، ونشر الجهل والركود، وإخماد روح التقدم التي تقوم عليها الحضارات. في خضم هذه الظروف، برز جمال الدين الأفغاني كأحد أبرز رواد الإصلاح، حيث كرس حياته لاستنهاض الأمة الإسلامية، ومقاومة الاستعمار، ومواجهة الأنظمة المحلية المستبدة. كان هدفه إحياء روح النهضة في الشرق، وتأسيس جيل من القادة والمفكرين الذين عملوا على تثقيف المجتمع ومحاولة النهوض به وفق الإمكانات المتاحة.

يُعد جمال الدين الأفغاني رائدًا لحركة الإصلاح في العصر الحديث، ومن أبرز الداعين إلى وحدة الأمة الإسلامية. كانت رؤيته قائمة على تحرير الأمة من الاستعمار والاستغلال والغفلة، وبث وعي جديد يعزز من مكانتها الحضارية. من خلال أفكاره وأعماله، أسس لمنهج فكري وسياسي أصبح أساسًا لحركات الإصلاح التي جاءت بعده.

يتناول هذا البحث حياة جمال الدين الأفغاني وأثره الإصلاحي في العالم الإسلامي. ينقسم البحث إلى ثلاثة فصول: يتناول الفصل الأول سيرته الذاتية، بما في ذلك مولده، موطنه، نشأته، ووفاته. أما الفصل الثاني، فيستعرض تأثير عائلته عليه، وتعليمه، والظروف السياسية التي عاصرها. ويتطرق الفصل الثالث إلى جهوده الإصلاحية، مع التركيز على دوره في مصر، حيث يناقش الأوضاع السياسية والاقتصادية في تلك الفترة، وفكره في مقاومة الاستعمار، ونظام الحكم كما تصوره الأفغاني.

اعتمد البحث على مجموعة من المصادر والمراجع الأساسية، من أبرزها "الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني" بتحقيق محمد عمارة، و"العروة الوثقى" لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، و"حقيقة جمال الدين الأفغاني" لميرزا لطف الله خان الأسد أبادي. واجهتني أثناء إعداد البحث تحديات تتعلق بتفسير النصوص الأصلية، التي تميزت أحيانًا بالغموض، بالإضافة إلى التباينات في المصادر حول موطنه وأصوله، مما حال دون التوصل إلى إجماع قاطع بشأن مسقط رأسه.

يسعى هذا البحث إلى تقديم صورة شاملة عن شخصية جمال الدين الأفغاني، وجهوده في الإصلاح، وتأثيره العميق على الفكر الإسلامي الحديث، ليكون نموذجًا يُستلهم في مواجهة التحديات الفكرية والسياسية الراهنة.

الكلمات المفتاحية: جمال الدين الأفغاني، الإصلاح الإسلامي، مقاومة الاستعمار، ضعف الدولة العثمانية، وحدة الأمة الإسلامية، اليقظة الفكرية، حركات الإصلاح الحديثة.

مقدّمة

محمد جمال الدين ولد عام 1254م،[2] واسم والده صفدر،[3] ويعود نسبه إلى أحد أئمة المحدثين، وهو الإمام علي الترمذي، حيث يمتد النسب حتى يصل إلى الإمام علي بن أبي طالب.[4] يُحتمل أن يكون انتسابه إلى النسب العلوي حقيقيًا أو وسيلة لتعزيز مكانته الاجتماعية وإضفاء قدرٍ من الهيبة والتأثير في محيطه، وهو ما كان شائعًا بين العديد من الشخصيات التاريخية التي سبقته أو جاءت بعده. أما والدته، فهي أيضًا ذات نسب شريف وتنتمي إلى أسرة أبيه، إذ كانت ابنة عمه.[5]

من الجدير بالذكر أن النسب العلوي في تلك الحقبة كان يتمتع بمكانة اجتماعية وثقافية مميزة، مما جعل الأفراد المنتسبين إليه يحظون باحترام واسع وتأثير كبير في محيطهم. وقد ساهم هذا الانتساب بشكل كبير في تعزيز حضور جمال الدين الفكري والسياسي، حيث لعب دورًا مهمًا في تسهيل تبنيه للأفكار الإصلاحية وتوسيع نفوذه في الدوائر الاجتماعية والدينية.

أما بالنسبة لموطن جمال الدين، فقد كان هذا الأمر محل جدل بين المؤرخين الذين ترجموا لحياته. فقد اختلفوا حول ما إذا كان قد ولد في قرية أسعد أباد، وهي إحدى قرى كير التابعة لكابل في بلاد الأفغان، أم في قرية أسد أباد، التي تقع ضمن أعمال إيران. ويبدو أن هذا الجدل قد استمر بسبب عدم وضوح موقف جمال الدين نفسه، حيث لم يصرّح بشكل قاطع عن موطنه. بل إنه، في أحد تصريحاته، يقول[6]: "وأي نفع لمن بذكر أنني ولدت

---

[2] الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، 168/6.

[3] صفدر: هو لفظ فارسي من ألقاب الإمام علي بن أبي طالب وهو اسم مركب من كلمة (صف) العربية أي الطابور "ودر" الفارسية بمعنى مخترق فتصبح مخترق الصفوف، الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، 168/6.

[4] أمين، أحمد، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، 60، عبده محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 16.

[5] عمارة، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 44.

[6] الأفغاني جمال الدين، **العروة الوثقى**، 17، الجبلاوي؛ محمد طاهر، **جمال الدين الأفغاني حياته وأرائه**، 5؛ **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، 26.

سنة 1254هـ، وعمرت أكثر من نصف قرن واضطررت إلى ترك بلادي الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء"، مما يوحي بعدم اهتمامه بتحديد موطنه أو تأكيد انتمائه الجغرافي.

مع ذلك، من المفيد أن نشير إلى شهادة صديق عمره محمد عبده، الذي قال عن عائلته[7]: "وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في كثير من أعمال كابل، تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام". هذه الشهادة تؤكد رأي المؤرخين الذين نادوا بأفغانيته. ورغم ذلك، يظل هذا الأمر محط اجتهاد بين الباحثين، وربما يعكس عدم تركيز جمال الدين على انتمائه المكاني اهتمامه الأكبر بقضايا الأمة الإسلامية ككل، بعيدًا عن الحدود الوطنية أو الإقليمية.

اختلف المؤرخون حول الموطن الأصلي لجمال الدين الأفغاني، وبرزت في هذا السياق وجهتا نظر رئيسيتان. الفريق الأول يرى أنه أفغاني، مستندًا إلى شهادات عدة، من بينها ما ذكره المؤرخ محمد عمارة[8] الذي أشار إلى اضطهاد أسرته من قبل الأمير دوست محمد خان، مما اضطر الأسرة إلى مغادرة بلدتهم الأصلية خوفًا من نفوذها السياسي والانتقال إلى كابل. ومن هذا المنظور، يعتبر أن وجود جذور لعائلته في إيران لا يتعارض مع أفغانيته، بل يعكس طبيعة التنقل والاضطهاد الذي تعرضت له الأسرة في تلك الفترة.

أما الفريق الثاني، الذي يرى أن جمال الدين إيراني الأصل، وكان منهم ميرزا لطف الله خان[9] الذي ادعى أنه ابن أخت جمال الدين، فقد استند إلى أدلة عدة، أبرزها وجود بقايا لعائلته في قرية أسد أباد بإيران، تُعرف بالأسرة الجمالية، مع غياب أي أثر لها في أفغانستان. بالإضافة إلى ذلك، استدلوا بأن اسم والده "صفدر" يُعتبر من الألقاب الشيعية الشائعة في

[7] عبده، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 17.

[8] عمارة، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 13.

[9] ميرزا لطف الله خان: وهو فارسي الأصل، ادعى أنه ابن أخت جمال الدين، وميرزا لقب فارسي مكون من كلمتين "مير" بمعنى الأمير "وزا" بمعنى ابن وكان يطلق على الأمراء ثم أصبح يطلق على كبار الأساتذة والعلماء، الأسد أبادي، ميرزا لطف الله خان، **حقيقة جمال الدين**، 12/1.

إيران.[10] غير أن هذا الدليل قوبل بردود من الفريق الأول، الذي اعتبر أن ارتباط اسم بشخص ما لا يمكن أن يُعتبر دليلًا قاطعًا على أصله، تمامًا كما لا يمكن اعتبار كل من يحمل اسم الحسن أو الحسين أو فاطمة شيعيًا بالضرورة.[11]

ومن بين الأدلة التي قدمها الفريق الثاني أيضًا، اهتمام جمال الدين الكبير بإيران وحركات الإصلاح الديني فيها، وسعيه لجعلها مركزًا للجامعة الإسلامية، إضافة إلى مشاركته في المؤتمر الهادف للتخلص من ناصر الدين شاه، الذي كان يراه عقبة أمام مشروعه الإصلاحي. إلا أن الفريق الأول رد على هذا الادعاء بالإشارة إلى أن جمال الدين اشتهر بالترحال والعمل على الإصلاح في مختلف البلدان، بما في ذلك الهند، وتركيا، ومصر، وغيرها، مما يجعل اهتمامه بإيران جزءًا من نشاطه الفكري العام وليس دليلًا على انتماء محدد.[12]

وفي النهاية، من خلال تحليل هذه الأدلة المتضاربة، يتضح أن المؤرخين لم يصلوا إلى توافق حول الموطن الأصلي لجمال الدين. ومع ذلك، فإن هذا الجدل لا يقلل من مكانته كمفكر إصلاحي صاحب رؤية عميقة وأفكار مذهلة. فالقيمة الحقيقية لجمال الدين لا تكمن في موطنه، بل في فكره وتأثيره العميق على المجتمعات التي عاش فيها وسعى لإصلاحها.

يمكن تفسير هذا الغموض على أنه جزء من استراتيجية جمال الدين لتقديم نفسه كشخصية أممية تنتمي إلى الأمة الإسلامية ككل، وليس إلى بلد بعينه. هذا الغموض ربما أتاح له تأثيرًا أوسع في العالم الإسلامي، حيث تبنته مختلف الأطراف كرمز للوحدة الإسلامية في فترة عانت فيها الأمة من التجزئة السياسية والجغرافية.

[10] الأسد أبادي، ميرزا لطف الله خان، **حقيقة جمال الدين الأفغاني**، 12/1.

[11] الأسد أبادي، ميرزا لطف الله خان، **حقيقة جمال الدين الأفغاني**، 12/1.

[12] عمارة، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 24-25.

نشأته وتعليمه

نشأ جمال الدين في بيئة كريمة وعائلة ذات مكانة مرموقة، حيث حظي برعاية واهتمام والده السيد صفدر، الذي تولى تعليمه منذ صغره. بدأ جمال الدين دراسته في سن الثامنة،[13] حيث أرسله والده إلى المعلمين لتعلم القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية والنحو. وعندما بلغ العاشرة من عمره، كان قد أتم حفظ القرآن وبدأ التعمق في علوم اللغة.

إن هذه النشأة تُظهر اهتمام الأسرة بتوفير تعليم متكامل لجمال الدين منذ الصغر، مما ساهم في بناء شخصيته الفكرية والدينية. تركيزه على اللغة والقرآن يدل على أنه نشأ في بيئة تقليدية حريصة على العلوم الإسلامية.

في عام 1264هـ، سافر جمال الدين مع والده إلى مدينة قزوين، الواقعة بالقرب من مدينة همذان، حيث كان والده يعمل مدرسًا. وخلال إقامته هناك لمدة عامين، أظهر جمال الدين شغفًا كبيرًا بالعلم، إذ انكب على دراسة العلوم المختلفة،[14] وبرزت عليه علامات الذكاء والفطنة منذ صغره. وكان من بين اهتماماته التأمل في النجوم ودراسة الظواهر الطبيعية، وهو ما تجلى عندما تفشى الطاعون في قزوين، إذ قام بفحص الجثث سعيًا لفهم المرض وسبل علاجه. ومع اشتداد انتشار الوباء، اضطر والده إلى الانتقال بالعائلة إلى طهران عام 1266هـ.[15]

بدأ جمال الدين بعد ذلك سلسلة من الأسفار التي أسهمت في تشكيل شخصيته الفكرية والسياسية. انتقل من بلد إلى آخر، فكانت الهند إحدى محطاته الهامة، حيث تعرّف على العلوم الأوروبية واطلع على الفكر الغربي. عاد بعدها إلى أفغانستان حيث لعب دورًا سياسيًا

[13] الجبلاوي، محمد طاهر، **جمال الدين الأفغاني حياته وآراءه**، 6؛ قلعجي، قدري، **جمال الدين الأفغاني**، 26.

[14] عمارة، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 45.

[15] عوض، كارم، **جمال الدين الأفغاني**، 19.

وعسكريًا بارزًا،[16] إذ التحق بخدمة الأمير دوست محمد خان. وبعد وفاة الأخير، واصل خدمته تحت قيادة الأمير محمد أعظم خان، حيث عُين أميرًا للقواد في جيشه. إلا أن وفاة محمد أعظم خان أثارت مخاوف أخيه من جمال الدين، مما دفع الأخير إلى مغادرة أفغانستان والتوجه إلى الهند.[17]

هذه المرحلة من حياته تُبرز تعدد مصادر تكوينه الفكري؛ فهو لم يكتفِ بالعلوم الدينية والتقليدية، بل انفتح على الفكر الأوروبي. كما أن مشاركته في الشأن العسكري والسياسي تُظهر شخصيته القيادية وطموحه في إصلاح مجتمعه.

كانت شخصية جمال الدين في الهند محط اهتمام السلطات الإنجليزية، التي خشيت من تأثيره السياسي. فرضت عليه الإقامة الجبرية ووضعت عليه الجواسيس لمراقبة تحركاته ومنعه من التواصل مع الناس. ومع ذلك، استطاع جمال الدين خلال إقامته في الهند أن ينشر بذور الوطنية بين الناس، مما يدل على قدرته على التأثير في محيطه حتى في ظل القيود المفروضة عليه.[18]

لقد زادت شهرة جمال الدين مع تعدد أسفاره، حيث ترك بصمات واضحة في كل بلد زاره، مما جعل شخصيته محط اهتمام وجدال في كل مكان. في الأستانة، تم تعيينه عضوًا في مجلس المعارف، حيث ألقى محاضرة على الطلاب عن الصناعات. وخلال حديثه، وردت عنه آراء أثارت جدلاً واسعًا، خاصة تفسيره للنبوة بأنها "صفة مكتسبة"، حيث اعتبرها أنبل الصناعات، مؤكدًا أن الفيلسوف له دور لا يقل أهمية عن النبي.[19] هذا الرأي تم تحريفه من قبل مخالفيه، مما أدى إلى اتهامه بالإلحاد. وقد جاءت هذه الحادثة في سياق خلافه مع شيخ

[16] حوارني، ألبرت، **الفكر العربي**، 137.

[17] الأفغاني، جمال الدين، العروة الوثقى، 18.

[18] نفس المرجع السابق، 18-19.

[19] شلش، علي، **جمال الدين الأفغاني بين دراساته**، 116.

الإسلام تحسين أفندي،[20] حيث تحدث الأفغاني عن الكون كمثل لجسم حي ذي أعضاء، وروحه الحكمة المكتسبة أو النبوة التي يصطفي الله بها من يشاء. إلا أن هذه الأفكار تم تشويهها من قبل خصومه، مما أدى في النهاية إلى نفيه من الأستانة.[21]

بعد نفيه من الأستانة، انتقل جمال الدين إلى مصر حيث واجه معارضة شديدة من الأزهر، مما اضطره إلى مغادرة البلاد. هناك، أظهر اهتمامًا بمواجهة الإلحاد والدهرية، فألف كتابه الشهير "رسالة الرد على الدهريين"، الذي أصبح لاحقًا مرجعًا في الرد على الفكر المادي والإلحادي.[22]

من مصر، بدأت رحلة جمال الدين إلى أوروبا، حيث انتقل بين لندن وباريس. في باريس، أسس مجلته الشهيرة "العروة الوثقى"،[23] التي حملت رسائل إصلاحية ودعوات للوحدة الإسلامية. وقد جعلت هذه المجلة من جمال الدين رمزًا للفكر الإصلاحي المتجاوز للحدود الجغرافية.

من أوروبا، انتقل جمال الدين إلى إيران، حيث التقى بالشاه الذي دعاه للإقامة فيها. إلا أن الخلافات بينهما دفعت جمال الدين إلى مغادرة إيران والتوجه إلى البصرة. تكررت هذه الدائرة من الجدال والخلافات أينما حل، مما يعكس شخصيته الجدلية وتأثيره القوي الذي أثار حفيظة خصومه.

[20] عمارة، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 51.

[21] قلعجي، قدري، **جمال الدين الأفغاني**، 31.

[22] أبو رية، محمود، **جمال الدين الأفغاني**، 18.

[23] مجلة العروة الوثقى: وهي مجلة أسبوعية عربية كان مدير سياستها جمال لدين الأفغاني والشيخ محمد عبده محررها وكانت تتولى الإنفاق عليها جمعية اسمها العروة الوثقى لها فروع في أقطار الشرق وتعمل على إنهاض الدولة الإسلامية؛ الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 24.

وفاة جمال الدين

توفي جمال الدين يوم الثلاثاء التاسع من مارس عام 1897م،[24] بعد أن ظهرت عليه أعراض مرض عضال،[25] وقد أُشير إلى أن وفاته كانت نتيجة إصابته بمرض السرطان في الفك السفلي، حيث خضع لعدة عمليات جراحية على أيدي جراحين مهرة، لكنها لم تنجح في إنقاذ حياته. ظل المرض يسري في جسده حتى وفاته.[26] إلا أن الروايات حول سبب وفاته لم تتفق على تفسير واحد، حيث تردد أيضًا أنه قد مات مسمومًا.[27]

اتهمت بعض الروايات أفرادًا من إيران والسلطان عبد الحميد الثاني بالتورط في تسميمه. وكان السلطان عبد الحميد قد فرض الإقامة الجبرية على جمال الدين، واحتجزه بعد أن عارض الأخير مساعي السلطان للسيطرة على المؤتمر الإسلامي الأعلى. يُعتقد أن هذا الخلاف السياسي كان سببًا في حقد السلطان عليه، مما أدى إلى انتشار شائعات حول تورطه في قتله. ومباشرة بعد وفاته، أرسل السلطان بعض موظفيه للاستحواذ على أوراقه ومؤلفاته، مما زاد من الشكوك حول الملابسات المحيطة بوفاته.

صدرت أوامر السلطان بدفن جمال الدين بعد وفاته بساعتين فقط. جرى تشييع جنازته في أجواء أمنية مشددة، حيث سار نعشه بين حشود من الشرطة، مخافة حدوث اضطرابات من أنصاره الذين كانوا في ريب حول أسباب وفاته. يعكس هذا الإجراء مدى تأثير جمال الدين في مجتمعه، والخشية من أن يؤدي موته إلى تحركات شعبية أو فتنة سياسية.[28]

[24] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 24؛ المغربي، عبد القادر، **جمال الدين الأفغاني**، 11.

[25] الجبلاوي، محمد طاهر، **جمال الدين الأفغاني**، 36.

[26] قلعجي، قدري، **جمال الدين الأفغاني**، 107.

[27] الأفغاني، جمال الدين، **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، 139.

[28] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 27-28.

العوامل المؤثرة في فكره

لعبت الأسرة دورًا محوريًا في تشكيل فكر جمال الدين الأفغاني وشخصيته منذ سنوات طفولته الأولى. ينتمي جمال الدين إلى أسرة عريقة وذات مكانة مرموقة في بلاد الأفغان،[29] على الرغم من الخلافات حول جذور العائلة. كانت عائلته تُعد من أقدم الأسر وأكثرها مجدًا وشرفًا في المنطقة. والد جمال الدين، السيد صفدر، كان يتمتع بمنزلة كبيرة لدى الأفغانيين، حيث كانوا يجلونه ويقدرونه،[30] وكان له سيادة على جزء من الأراضي الأفغانية. هذه السيطرة والنفوذ الكبيران لعائلته على أراضي أفغانستان كانا سببًا في ترحيلهم إلى إيران خوفًا من تأثيرهم السياسي والاجتماعي.[31]

كان السيد صفدر والد جمال الدين شخصية بارزة، ليس فقط في مجتمعه، بل أيضًا داخل عائلته، حيث كان يعمل في سلك التدريس. هذه الوظيفة أضافت بُعدًا ثقافيًا وفكريًا إلى بيئة جمال الدين. قام والد جمال الدين بتربية ابنه تربية كريمة ورفيعة المستوى، حيث أولاها اهتمامًا خاصًا منذ الصغر. بفضل هذا الاهتمام، بزغت مواهب جمال الدين في وقت مبكر من حياته.[32]

والده لم يقتصر دوره على توفير بيئة ثقافية، بل كان يأخذ جمال الدين معه في أسفاره بين المناطق المختلفة، مما أتاح له فرصة الاطلاع على ثقافات متنوعة واكتساب تجارب مبكرة.[33] بالإضافة إلى ذلك، كان والده يشرف بنفسه على تعليمه، حيث بدأ في تعليمه القرآن

[29] عوض، كارم، **جمال الدين الأفغاني**، 15.

[30] الجبلاوي، محمد طاهر، **جمال الدين الأفغاني**، 5.

[31] أبو رية، محمود، **جمال الدين الأفغاني**، 15، 16.

[32] الجبلاوي، محمد طاهر، **جمال الدين الأفغاني**، 5.

[33] عمارة، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 45.

الكريم وعمره ثماني سنوات. إلى جانب القرآن، تعلم جمال الدين النحو وبعض اللغات الأخرى، واستمر والده في الإشراف على تعليمه حتى بلغ سن العاشرة.[34]

يتضح أن البيئة الأسرية لعبت دورًا أساسيًا في صياغة فكر جمال الدين الأفغاني. فقد أتاح له وضع أسرته الاجتماعي والسياسي، بالإضافة إلى مهنة والده في التدريس، فرصة للعيش في بيئة مثقفة تُعلي من قيمة التعليم والمعرفة. هذا الجو المثقف والراقي دفع جمال الدين إلى التفرغ للتعلم وتطوير مواهبه الفكرية منذ صغره، بعيدًا عن الانشغال في الأمور المادية أو الصراعات الاجتماعية.

تعليمه وتحصيله العلمي

برز حب جمال الدين الأفغاني للعلم منذ طفولته المبكرة، حيث استطاع أن يحفظ القرآن الكريم خلال ستة أشهر فقط، مما يعكس قدراته الاستثنائية واستعداده الفطري لتلقي مختلف العلوم. بدأ بتعلم اللغة العربية وتعمق في دراستها،[35] وظهر شغفه بالمناقشة في المسائل الدينية منذ صغره، حيث كان يحاول تفسيرها وفهم معانيها. امتاز بقوة الحفظ والذكاء الشديد، وهو ما جعله مهيأً للتفوق في مجالات متعددة.[36]

قام الأفغاني برحلات علمية متعددة إلى عدد من البلدان، مثل مكة، والهند، والحجاز، والنجف، حيث لعبت هذه الأسفار دورًا كبيرًا في تعزيز تحصيله العلمي وتقوية فكره.[37] من بين هذه الرحلات، كانت رحلته إلى النجف من أكثر الأسفار تأثيرًا، إذ قضى فيها أربع سنوات مكثفة لوحده. خلال هذه الفترة، درس العلوم الإسلامية، بما في ذلك فن التفسير والحديث، وعلوم المنطق والكلام، والأصول الرياضية. كما توسع في دراسة علوم الطب و"التشريح".[38]

---

[34] الأسد أبادي، ميرزا لطف الله خان، **حقيقة جمال الدين الأفغاني**، 42/1.

[35] عوض، كارم، **جمال الدين الأفغاني**، 20.

[36] الأسد أبادي، ميرزا لطف الله خان، **حقيقة جمال الدين الأفغاني**، 42/1.

[37] عوض، كارم، **جمال الدين الأفغاني**، 21.

[38] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 18.

إلى جانب العلوم ذلك، كان لجمال الدين اهتمام كبير باللغات، فقد أتقن سبع لغات رئيسية، شملت العربية والفارسية والتركية والإنجليزية والروسية والسنسكريتية، مما أتاح له الاطلاع على مصادر علمية متنوعة والتواصل مع ثقافات مختلفة.[39]

في هذا السياق، يشير المؤرخ عبد القادر المغربي[40] إلى وجود أوجه شبه بين جمال الدين الأفغاني وابن خلدون. فكلاهما: تفوق في دراسة العلوم الإسلامية والعلوم العقلية الأخرى، مما جعل منهما شخصيتين موسوعيتين تتجاوزان حدود زمانهما. كما أنهما اعتمدا على العقلانية والاجتهاد في استنباط الأحكام الدينية، وهو ما أثار انتقادات الشيوخ الذين لم يرغبوا في هذا التوجه العقلاني.

الحالة السياسية في زمانه

ولد جمال الدين الأفغاني في فترة عصيبة كان فيها العالم الإسلامي يعيش حالة من الضعف الشديد أمام الغرب. رفعت العديد من الدول الإسلامية رايات الاستسلام، بينما فرضت القوى الأوروبية نفوذها على مختلف أرجاء العالم الإسلامي. كانت الدولة العثمانية تعاني في تلك الحقبة من الوهن والضعف، غير قادرة على اللحاق بالغرب ومجاراة تقدمه، وهو ما جعلها عرضة للسخرية والتوصيف بـ"دولة الرجل المريض".[41] في ظل هذا الوضع، كان النفوذ البريطاني يتوسع بشكل كبير، حيث سيطر الإنجليز على عدن جنوب الحجاز عام 1838م،[42] مستغلينها كنقطة استراتيجية للهجوم على العالم الإسلامي. وفي عام 1841م، امتد نفوذهم إلى وسط الشام، بينما دخلت فرنسا في سباق السيطرة على العالم الإسلامي، مما أدى إلى تنافس بين القوى الأوروبية على العالم الإسلامية.[43]

---

[39] عوض، كارم، **جمال الدين الأفغاني**، 21.

[40] المغربي، عبد القادر، **جمال الدين الأفغاني**، 119، 121.

[41] عمارة، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 102-103.

[42] أبو رية، محمود، **جمال الدين الأفغاني**، 16.

[43] المرجع السابق نفسه، 17.

في تلك الظروف القاسية، أصبحت الدولة العثمانية التي كانت في الماضي قوة مهابة، غير قادرة على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية.[44] إلى جانب ضعفها السياسي والعسكري، ساهم استبداد بعض رجالات الدولة العثمانية وظلمهم في تفاقم الأوضاع. لم يكن ينظر جمال الدين إلى هذه الأوضاع على أنها مجرد أزمة سياسية أو اقتصادية فقط، بل أزمة فكرية واجتماعية عميقة، عززت الحاجة إلى مواجهة هذا الانحدار.[45]

في هذا السياق، عبر جمال الدين الأفغاني عن عمق الأزمة التي يعيشها العالم الإسلامي في أحد خطاباته بقوله[46]: "لقد جمعت ما تفرق من الفكر ولمت شعث التصور ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفني الأفغان وهي أول أرض مس جسمي ترابها، ثم الهند وفيها تشفف عقلي فإيران،...، وهكذا كل دولة من دول الإسلام وما آل إليه أمرهم،... ولقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله وتشتت آرائهم فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم إلى الخطر المحدق بهم." تعكس هذه الكلمات إدراكه العميق للمخاطر التي تواجه الأمة الإسلامية، حيث لم يرَ المشكلات كمجرد أزمات سياسية أو عسكرية، بل اعتبرها أزمات فكرية واجتماعية تتطلب إصلاحًا شاملًا.

كان الغزو الغربي والتوسع الاستعماري الذي واجهه العالم الإسلامي سببًا رئيسيًا في إشعال غضب جمال الدين الأفغاني ودفعه إلى التحرك. اعتبر أن الأمة الإسلامية بحاجة إلى رؤية واضحة وخطة عمل لمواجهة التحديات، مما دفعه إلى تبني مشروع إصلاحي شامل. انطلق من أفغانستان، ثم الهند، ومنها إلى إيران ومناطق أخرى، حاملًا رسالته الإصلاحية تهدف إلى توحيد الأمة الإسلامية وتنبيهها إلى الأخطار التي تحيط بها. لم تكن تحركاته مجرد رحلات عابرة، بل كانت جزءًا من نضال مستمر لتشخيص علل العالم الإسلامي والسعي لعلاجها من وجهة نظره. رأى جمال الدين أن الانقسام الداخلي وتشتت الآراء بين المسلمين

[44] عمارة، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 101.

[45] قلعجي، قدري، **جمال الدين الأفغاني**، 4-5.

[46] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 31.

هما أكبر العوائق التي تحول دون نهوض الأمة. لذلك، ركز في خطابه على أهمية الوحدة ونبذ الفرقة، معتبرًا أن التحديات الخارجية ما هي إلا نتيجة للضعف الداخلي الذي تعانيه الأمة.

في خضم هذا المشهد السياسي، كانت رؤية جمال الدين الإصلاحية تستند إلى تشخيص عميق للأزمة التي تعصف بالعالم الإسلامي، فكان رأيه أن ضعف الدولة العثمانية وفساد بعض رجالاتها ساهم في إضعاف المجتمعات الإسلامية، وجعلها عرضة للهيمنة الغربية. لكنه لم يلقِ باللوم فقط على الحكام أو القوى الغربية، بل دعا المسلمين أنفسهم إلى تحمل مسؤوليتهم عن حالهم، مشددًا على ضرورة استعادة الوحدة الإسلامية وتطوير الفكر والنهوض بالتعليم والعلوم.

كانت رحلاته الإصلاحية ونشاطاته الفكرية تعبيرًا عمليًا عن قناعته بأن النهضة لا تتحقق إلا بوعي الشعوب وتكاتفها. من خلال تنقلاته بين أفغانستان والهند وإيران ومناطق أخرى، حاول أن يجمع بين الفكر والعمل. لم تكن رؤيته للإصلاح مقصورة على منطقة معينة أو قضية محددة، بل كانت شاملة، تتناول الجوانب الفكرية والسياسية والاجتماعية للأزمة الإسلامية.

كانت الأوضاع السياسية التي شهدها العالم الإسلامي سببًا رئيسيًا في تشكيل شخصيته الإصلاحية، حيث جعلته تلك الظروف يرى أن النهضة لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال توحيد الأمة وتحريرها من القيود التي فرضتها عليها قوى الاستبداد والجهل والهيمنة الغربية.

تأثير جمال الدين الأفغاني في مصر

كانت مصر في فترة حكم محمد علي باشا (1805-1848م) تعيش فترة تطور شملت الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية. قاد محمد علي هذا التطور من خلال إصلاحات متعددة، كان من أبرزها إرسال بعثات علمية إلى الدول الأوروبية،[47] مما ساهم في إدخال مصر إلى

[47] خوري، رئيف، **الفكر العربي الحديث**، 80.

طور جديد من المدنية. ظهر في تلك الحقبة شكل من أشكال الحكومة النظامية، مما جعلها نموذجًا للتحديث والتقدم في العالم الإسلامي.[48]

أبدى جمال الدين الأفغاني إعجابه بعصر محمد علي باشا، واعتبره "نابغة الدهر"، على الرغم من أنه لم يتلقَ تعليمًا سياسيًا تقليديًا.[49] وأشاد أيضًا بعصور خلفاء محمد علي، وخاصة عباس الأول، الذي رأى فيه تطلعًا نحو الخلافة العربية التي يمكن أن تُنهي حكم العثمانيين. في هذا الصدد، يقول جمال الدين[50]: "لو تخلصت مصر من بدائن الاستعمار وتسنى لعباس مع ذكائه وتطلعه، أن يكون له همة محمد علي الكبير ومضاء إبراهيم، وسخاء إسماعيل، لوقع من الخلافة على ما يرجوه." يعكس هذا التصريح رؤية جمال الدين للإصلاح السياسي في مصر، حيث رأى في قيادتها إمكانية للنهوض بالعرب والمسلمين.

كانت مصر بالنسبة لجمال الدين أخصب منطقة أثرت في فكره. هذا التأثير نبع من واقع مصر الحضاري ومقوماتها القيادية بين العرب والمسلمين. فقد وصلت مصر إلى مستوى عالٍ من الوحدة الوطنية في وقت كانت فيه معظم الشعوب الإسلامية تعيش تحت ظلال القبلية، ولا يجمعها سوى رابطة الدين.[51]

لكن هذه النهضة لم تدم طويلاً حسب رأي جمال الدين، فقد استهدفتها القوى الغربية، التي نظرت إلى تقدم مصر بعين الحسد والخوف. ومع الاحتلال البريطاني، بدأت مصر تسقط في خندق التبعية الغربية. حاولت بريطانيا القضاء على نهضة مصر عبر فرض الاحتلال الثقافي، حيث استهدفت التعليم والثقافة المصرية وبدأت بتقييد الخديوي إسماعيل وإضعاف سلطته.

---

[48] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 200.

[49] الأفغاني، جمال الدين **الأعمال لكاملة**، 99/2.

[50] **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، 115.

[51] الأفغاني، جمال الدين **الأعمال لكاملة**، 99/2.

يرى جمال الدين أنه بعد فترة من الازدهار الذي شهدته مصر في عهد محمد علي باشا وخلفائه، بدأت بريطانيا تفرض سيطرتها تدريجيًا على البلاد، مستغلة ضعف الخديوي إسماعيل وأسلوبه في الإدارة، والذي تميز بالإسراف والبذخ في الكماليات. هذا النمط من الحكم أدى إلى تراكم الديون على مصر، مما أعطى بريطانيا ذريعة للتدخل بحجة حماية طريقها إلى الهند، وهو المبرر الذي استخدمته لتحقيق رغبتها في التوسع والسيطرة.[52]

لم تكتف بريطانيا بالتدخل المالي، بل عمدت إلى كبح أي مظاهر للتقدم والازدهار في مصر. لجأت إلى التدمير المنهجي من خلال القتل والحرق ونشر الفقر، مما جعل المصريين يعيشون أوضاعًا قاسية. تقلصت فرص التعليم، وأصبح الحصول على وظيفة حكومية مشروطًا بالولاء لبريطانيا. كل هذا كان جزءًا من سياسة ممنهجة تهدف إلى إضعاف مصر وتفكيك بنيتها الاقتصادية والاجتماعية.[53]

بريطانيا لم تتوقف عند السيطرة المالية، بل شرعت في التدخل المباشر في شؤون الإدارة المصرية. بدأت بإرسال مراقبين إداريين، ثم تطور الوضع إلى مشاركة فعلية في الحكومة والوزارات. تم حل الجيش الوطني واستبداله بقوات تابعة لبريطانيا، كما طُرد آلاف الموظفين الوطنيين من مناصبهم، وأُغلقت أمامهم أبواب العمل. كل هذه الإجراءات قُدمت تحت ستار تحسين الأوضاع في مصر، لكنها كانت تهدف في الواقع إلى تكريس الهيمنة البريطانية.[54]

في هذه الظروف القاسية، ظهر جمال الدين الأفغاني في مصر، حيث أصبحت أفكاره الإصلاحية محط اهتمام الطبقة المثقفة والشباب المتعلم. وصف تلميذه محمد عبده حال المصريين في ذلك الوقت بأنهم كانوا يرون كل شؤونهم بيد الحاكم، وأنهم لا يجرؤون على

[52] عوض، كارم، **جمال الدين الأفغاني**، 56، 57.

[53] الأفغاني، جمال الدين، **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، 227، 228.

[54] الأفغاني، جمال الدين، **الأعمال لكاملة**، 100، 101.

مناهضته أو التصدي لقراراته. وسط هذا الجو المليء بالخضوع والاستسلام، كان وجود جمال الدين نقطة تحول.[55]

فكر جمال الدين الأفغاني في مقاومة الاستعمار

كان منهج جمال الدين الأفغاني في مواجهة الاستعمار منهجًا ثوريًا بالمعنى الحقيقي للكلمة. يتجلى هذا الطابع الثوري بوضوح في مقاله الذي نشره في مجلة العروة الوثقى بعد فشل الثورة العرابية، التي يُعتقد أن له دورًا فيها.[56] في هذا المقال، أشار الأفغاني إلى ضعف حكومة الإنجليز، مؤكدًا أن من أبرز أسلحتها استخدام التهويل لبث الخوف في نفوس خصومها وإرهاب الجهلاء. دعا جمال الدين الأهالي إلى مقاومة الحكومة الإنجليزية، وعدم طاعتها، ومعارضة أعمالها بشكل مباشر. وأوضح أن مقاومة العامة والأهالي أحيانًا تكون أكثر نفعًا من القوة العسكرية والحروب النظامية، إذ يمكن أن تكون المقاومة الشعبية أداة فعالة في مواجهة الاستعمار.[57]

تميزت دعوات الأفغاني بالتركيز على المقاومة الشعبية ووحدة الصف. في مقاله، دعا القبائل العربية في مصر إلى استعادة شهامتها والنضال من أجل حقوقها، حيث قال: "ليس من الفتنة أن ندعوهم -يعني المصريين- إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن." كما وجه خطابه بشكل خاص إلى الفلاحين المصريين، مطالبًا إياهم بالاتحاد ورفض مطالب الحكومة الاستعمارية. في إحدى خطبه، خاطب الفلاحين بجرأة، قائلاً: "أنت أيها الفلاح المسكين... تشق الأرض لتنبت ما نسد به الرمق وتقوم بوئد العيال فلماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة تعبك؟" تعكس هذه العبارات أسلوبه الثوري في إثارة وعي الفلاحين وتحفيزهم على مقاومة الظلم.[58]

---

[55] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 14.

[56] الأفغاني، جمال الدين، **الأعمال لكاملة**، 57/1.

[57] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 395.

[58] نفس المرجع السابق، 14.

رغم دعواته الواضحة لمقاومة الاستعمار، أثيرت شكوك حول علاقة جمال الدين ببريطانيا، حيث اتهمه البعض بأنه كان يعمل لصالحها. استندت هذه الاتهامات إلى علاقاته ببعض رجال بريطانيا، وإلى حقيقة أن بريطانيا وفرت له الحماية في بعض الأحيان. يُشار إلى أن مصر، التي كانت تحت النفوذ البريطاني، استقبلته ورحبت به. ذكر البعض أن نفيه من مصر كان نتيجة محاولته الإعداد لانقلاب لإنشاء جمهورية على الطراز الغربي، بدعم من الإنجليز ضد فرنسا. ورغم هذا الجدل، لم تقدم أدلة قاطعة على صحة هذه الاتهامات.[59]

على الرغم من الاتهامات التي وجهت لجمال الدين الأفغاني بالتواطؤ مع الإنجليز، فإن النظر العميق إلى كتاباته يكشف عن عداء واضح تجاههم. كانت كتاباته أداة أساسية في التعبير عن فكره ودعوته للإصلاح والمقاومة. يظهر من خلالها تحريضه المستمر على استنهاض الشعوب لمواجهة الاحتلال البريطاني والعمل على إخراجهم من الأراضي الإسلامية.

في كتاباته، وصف الأفغاني الإنجليز بأبشع الأوصاف، مُبرزًا سياساتهم القمعية وجرائمهم في حق الشعوب المستعمَرة. كان يشير إلى قتلهم للناس في مصر، وتدميرهم للبنية الاجتماعية والاقتصادية، وسعيهم لإفقار الشعب المصري واستعباده. كانت هذه الكتابات مليئة بالانتقادات الحادة والمباشرة التي تعكس عداءه الواضح للاستعمار البريطاني.

نظام الحكم عند جمال الدين الأفغاني: رؤية إصلاحية

كان جمال الدين الأفغاني من أوائل المفكرين الذين سعوا لتغيير نظام الحكم في مصر إلى نظام يعكس تطلعات الشعب ويحقق العدالة والمشاركة الحقيقية. أدرك الأفغاني أن تحقيق هذا الهدف يتطلب أولاً إعداد المجتمع فكريًا، وهو ما قام به من خلال تعليم وتوجيه نخبة من المفكرين المصريين البارزين مثل محمد عبده وسعد زغلول. هذه الكوكبة من المفكرين

[59] أبو علبة، عبد الرحيم فارس، **رموز الإصلاح الحديث**، 32، 35.

أثرت في الفكر المصري لاحقًا من خلال مؤلفاتهم وكتاباتهم، التي ساهمت في توعية الشعب وإثارة الوعي العام تجاه قضايا الإصلاح الوطني.[60]

بعد أن وضع الأساس الفكري، انتقل الأفغاني إلى التنظيم السياسي. كان أول من أسس تنظيمًا سياسيًا وطنيًا في مصر في العصر الحديث، وهو "الحزب الوطني الحر"،[61] الذي شكّل خطوة أولى نحو بذر بذور الثورة الوطنية ورعاية جيل ثوري جديد. تحت تأثيره، ظهرت الصحف الوطنية وبدأت روح المعارضة في التبلور، مما ساهم في تنشيط الحركة الوطنية.[62]

كان جمال الدين يرى أن الشعب المصري مغيب عن المشاركة في إدارة شؤونه، وأن الحكم في البلاد لا يعكس إرادة الأمة.[63] وعندما طلب تلاميذه منه أن يضع تصورًا للمجلس النيابي، شدد على أن القوة النيابية لأي أمة لا يمكن أن تحقق معناها الحقيقي إلا إذا كانت نابعة من إرادة الأمة نفسها، دون تدخل من الملك أو الأمير أو القوى الاستعمارية.[64] دعا الأفغاني إلى إقامة حكم دستوري نيابي في مصر، حيث يكون الحكم "من الشعب وللشعب"، وهو تصور يقوم على المشاركة الشعبية الحقيقية في اتخاذ القرارات.

إلا أن الأفغاني كان مدركًا للواقع السياسي في مصر، حيث أدرك أن تحقيق حكم نيابي دستوري كامل يشبه المجالس الأوروبية كان أمرًا صعب المنال. في هذا السياق، توقع أن أي مجلس نيابي يُشكل في مصر سيكون تحت سيطرة الحاكم أو القوى الاستعمارية، ولن يمثل إرادة الشعب بشكل حقيقي.[65] وقد أشار إلى هذا بقوله: "إن ما نبحث فيه هو أمر تصويري

---

[60] الأفغاني، جمال الدين، **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، 44.

[61] الحزب الوطني الحر: أنشأه جمال الدين الأفغاني وظهر في سنة 1879م، وقد ضم في صفوف قيادات مصرية سياسية بمن فيهم قيادات الثورة العربية؛ الأفغاني، جمال الدين، **الأعمال الكاملة**، 121.

[62] عمر، عبد العزيز، **دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، 296، 295.

[63] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 145.

[64] الأفغاني، جمال الدين، **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، 44.

[65] الأفغاني، جمال الدين، **الأعمال الكاملة**، 1/121.

لم يخرج إلى خير العمل بعد، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل، ورأيتم كل عضو يفر من أن يكون في حزب الشمال فرار من الأسد، أي حزب اليمين، إذ ذاك تقولون: صدق جمال الدين."[66]

نظرًا لتعقيد تحقيق نظام دستوري نيابي كامل، طرح الأفغاني فكرة الحكم النيابي الشوروي كحل أقرب إلى الواقع. هذا النموذج يعتمد على نصح الحاكم من خلال نخبة من عقلاء الأمة والمؤيدين له، بحيث يتم تقليص الحكم الفردي المستبد دون التخلص الكامل منه. ورغم أن هذا النموذج لم يكن يمثل طموح الأفغاني الكامل، إلا أنه كان يعتبره خطوة أفضل من الحكم الفردي المطلق.

في هذا الإطار، دعا الأفغاني إلى إقامة مؤسسات نيابية تمثل جماهير الشعب، موضحًا أن قوة أي مجلس نيابي تتوقف على كونه نابعًا من إرادة الأمة وليس تحت تأثير الملك أو الأمير أو قوى خارجية. يقول الأفغاني في هذا السياق: "حكم مصر بأهلها إنما أعني به الاشتراك الأهلي (الوطني) بالحكم الدستوري الصحيح، ذلك أن القوة النيابية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة، وأي مجلس نيابي بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أمينية محركة لها، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية موقوفة على إرادة من أحدثها."[67]

كان الأفغاني يرى أن قوة الحكم لا ينبغي أن تكون مطلقة، لأن القوة المطلقة تؤدي إلى الاستبداد والظلم. بدلاً من ذلك، دعا إلى قوة مقيدة بالقوانين والمبادئ الدستورية، حيث يكون الحاكم قويًا وعادلاً، ولكنه مقيد بمؤسسات وشورى تمثل إرادة الشعب. اعتبر الأفغاني أن حياة أي بلد مرتبطة بحاكمها، وحياة الشعب تعتمد على عدالة هذا الحاكم وقدرته على تحقيق التوازن بين القوة والمسؤولية.[68]

---

[66] الأفغاني، جمال الدين، **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، 44.

[67] الأفغاني، جمال الدين، **الأعمال الكاملة**، 1/121.

[68] الأفغاني، جمال الدين، **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، 83.

دور جمال الدين الأفغاني في الهند: دعوة للإصلاح والتغيير

قبل الحديث عن دور جمال الدين الأفغاني في الهند، من الضروري فهم الأوضاع التي كانت تسود الهند في تلك الفترة. كانت الهند تعيش في ظل الاستعمار البريطاني، حيث خضعت لممارسات قمعية وظروف اجتماعية واقتصادية شديدة السوء. عاش الملايين من سكانها حياة الذل والاستكانة،[69] في وقت كانت فيه الدولة العثمانية، التي كانت تُعتبر رمز الخلافة الإسلامية، تعاني من ضعف شديد وتفكك جعلها عاجزة عن مساعدة المسلمين في الهند.[70]

الهند، التي تُعد من أخصب بقاع الأرض بفضل تربتها الصالحة لزراعة جميع النباتات، كانت تعاني من استغلال البريطانيين لخيراتها. فرضت الحكومة البريطانية الإتاوات والضرائب الباهظة على السكان، مما أدى إلى تفقير الشعب. عاش الناس في الشوارع حفاة وعراة، يبحثون عن أي عمل شاق يضمن لهم قوت يومهم. كان البريطانيون يمنعون السكان المحليين من الاستفادة من خصوبة أرضهم، مما جعلهم يعيشون في فقر مدقع رغم غنى بلادهم بالموارد الطبيعية.[71]

في ظل هذه الظروف، لم يكن هناك معارضة حقيقية أو احتجاج يُذكر ضد الاستعمار البريطاني. يعود ذلك إلى عدة أسباب، أبرزها الخوف من بطش الحكومة البريطانية، بالإضافة إلى سياسة نشر الجهل التي عمد الاستعمار إلى تكريسها بين سكان الهند، لمنعهم من إدراك حقوقهم أو التفكير في مقاومتهم للاحتلال.

[69] عمارة، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 101.

[70] الأفغاني، جمال الدين، **الأعمال الكاملة**، 55/1.

[71] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 324.

ثورية جمال الدين الأفغاني في الهند

وصل جمال الدين الأفغاني إلى الهند عام 1285هـ،[72] وكان ذلك في وقتٍ كانت الهند تخضع فيه لسيطرة الاستعمار البريطاني الذي أحكم قبضته على البلاد وشعوبها. عند وصوله، أراد جمال الدين النزول عند أحد أصدقائه الهنود، لكنه تفاجأ باستقبال الحكومة البريطانية له استقبالًا باهرًا، حيث أعدت له سكنًا خاصًا.[73] هذا الاستقبال أثار تساؤلات وانتقادات من قبل معارضيه، الذين رأوا في ذلك دلالة على علاقة طيبة بينه وبين البريطانيين.[74]

على الرغم من الترحيب الرسمي الذي أبدته السلطات البريطانية، فإن الحقيقة تكمن في أن الإنجليز كانوا يخشون من تأثير جمال الدين على الشعب الهندي. كان يُنظر إليه على أنه مصلح ثوري قادر على تحريك الشعوب وإثارة روح المقاومة ضد الاحتلال. لذلك، فرضوا عليه رقابة مشددة، وأحاطوه بالجواسيس، وطلبوا منه تحديد إقامته لمدة شهرين فقط. إلا أن هذه القيود لم تمنعه من العمل على نشر الوعي الوطني، حيث تمكن من غرس بذور الوطنية في نفوس العامة، وتحفيزهم على إدراك واقعهم والعمل على تغييره.

رغم القيود التي فرضها الإنجليز، تمكن جمال الدين من الوصول إلى العامة، حيث بدأ في الحديث إليهم بشكل مباشر، داعيًا إياهم إلى الثورة على الأوضاع القائمة. في إحدى خطاباته الملهمة قال: "يا أهل الهند وعزة الحق وسر العدل، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين ذبابًا... لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ويجعل في آذان كبيرهم وقرًا."[75] تعكس هذه الكلمات شدة ثوريته ورغبته في استنهاض الشعب الهندي ليواجه الاستعمار بكل قوته.

---

[72] عمارة، محمد، **جمال الدين الأفغاني**، 49.

[73] الجبلاوي، محمد طاهر، **جمال الدين الأفغاني**، 9.

[74] علبة، عبد الرحيم، **رموز الإصلاح الحديث**، 32، 33.

[75] الأفغاني، جمال الدين، **الأعمال الكاملة**، 56/1.

ما أغضب جمال الدين بشدة هو السياسات القمعية التي انتهجها الاستعمار البريطاني في الهند. عمليات السلب والنهب، وفرض الإتاوات الباهظة على السكان، كانت سببًا رئيسيًا في حملاته ضد الاحتلال. استخدم جمال الدين أسلوبًا مميزًا يجمع بين الكراهية للاستعمار والدعابة التي تُثير الحماسة وتُلهب مشاعر العامة؛ بحيث وصلت كلماته إلى صميم القلوب، وأثرت في همم الناس، مما جعله مصدر إلهام لحركة المقاومة.[76]

الرد على الدهريين: موقف جمال الدين الأفغاني

كانت الهند في فترة الاستعمار البريطاني تعيش أوضاعًا قاسية، حيث عمل الإنجليز على استغلال نقاط الضعف لضمان استمرار سيطرتهم. من بين أبرز سياساتهم كان استهداف المسلمين الذين بلغ عددهم آنذاك خمسين مليونًا، مرتبطين بعلاقات قوية مع المسلمين في الشرق والغرب.[77] أدرك الإنجليز أن بقاء المسلمين متمسكين بدينهم وقرآنهم يجعل من المستحيل إخضاعهم لسلطة أجنبية. لذلك، سعوا إلى إضعاف العقيدة الإسلامية، مستغلين القسس والرؤساء الروحانيين لنشر كتب ورسائل تهاجم الإسلام، مما أثار غضب جمال الدين الأفغاني.[78]

صرح جمال الدين قائلاً: "ولا يمكن لذي غيرة أن يقيم على أرض تنشر فيها تلك الكتب، وأن يسكن تحت سماء تشرق شمسها على مرتكبي ذلك الإفك العظيم." جاء هذا التصريح في سياق رده على ما وصفه بالأكاذيب التي روجها الإنجليز. أوضح الأفغاني أن السياسات البريطانية في الهند تضمنت ثلاث ركائز رئيسية:[79]

توليد الشقاق بين الطوائف: عملت بريطانيا على زرع الفتنة بين مختلف الطوائف الهندية، مما أدى إلى تفاقم الانقسامات الدينية والاجتماعية.

[76] الأفغاني، جمال الدين، **الأعمال الكاملة**، 56/1.

[77] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 412.

[78] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 413.

[79] الأفغاني، جمال الدين، **الأعمال الكاملة**، 56/1

حجب الأخبار عن الشعب: فرضت السلطات رقابة صارمة على الأخبار والمعلومات، مما منع الهنود من فهم الواقع السياسي والمشاكل التي تواجههم.

ضرب العقيدة الإسلامية: كان الهدف الأساسي هو تقويض العقيدة الإسلامية عبر نشر الأفكار الدهرية التي تنكر وجود الله والروح، معتمدة على إعادة صياغة تعاليم الفلاسفة الماديين القدماء.

عرّف جمال الدين الأفغاني الدهريين بأنهم جماعة تظاهروا بأنهم يسعون إلى القضاء على الخرافات وكشف الأسرار، إلا أن هدفهم الحقيقي كان زعزعة العقيدة الإسلامية وتدمير القيم الأخلاقية. دعا الدهريون إلى: إنكار الحياة بعد الموت. التشكيك في شرف أي دين من الأديان. تحرير النفوس من الشعور بالإثم، مما أدى إلى انتشار السلب والنهب.[80]

وأوضح الأفغاني أن هذه الأفكار لم تكن جديدة، بل استُلهمت من فلاسفة اليونان القدماء، ثم نقلها الزنادقة والفرس. الدهريون في الهند لم يقتصروا على الدعوة إلى الإلحاد، بل ذهبوا إلى تفسير القرآن الكريم بأسلوب محرف، وجهروا بالدعوة إلى خلع الأديان.[81]

في مواجهة هذه الدعوات، كتب جمال الدين الأفغاني رسالة شهيرة تتناول مذاهب الدهريين وتفندها، موضحًا ما تسببه هذه الأفكار من مفاسد اجتماعية وأخلاقية. أكد الأفغاني أن الدين هو أساس المدنية وقوام العمران، وأن هدف الدعوة الدهرية كان زرع الفتنة بين المسلمين وإضعاف وحدتهم.[82] وأشار إلى أن الدهريين في الهند يختلفون عن الدهريين في أوروبا، حيث كان الملحدون الأوروبيون محبين لأوطانهم، في حين أن الدهريين في الهند كانوا يدعون إلى القبول بالحكم الأجنبي وتعزيز الهيمنة البريطانية.[83]

[80] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 413.

[81] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 414.

[82] الأفغاني، جمال الدين، **العروة الوثقى**، 415.

[83] الجبلاوي، محمد طاهر، **جمال الدين الأفغاني**، 45.

هكذا وصف جمال الدين الدهريين في الهند بأنهم أداة بريطانية تهدف إلى تحقيق أهداف استعمارية محددة، مثل:

زعزعة العقيدة الإسلامية لضمان عدم قدرتها على الوقوف في وجه الاحتلال، وتقويض فكرة توحيد المسلمين في الهند وربطهم بالخلافة الإسلامية، وضرب فكرة الوحدة الوطنية التي يمكن أن تعرقل المشروع الاستعماري البريطاني.

النتائج

بعد الانتهاء من هذا العمل، يمكن استخلاص مجموعة من النتائج التي تعكس الدور المحوري لجمال الدين الأفغاني في مسيرة الإصلاح الفكري والسياسي في العالم الإسلامي. لقد كان جمال الدين شخصية جدلية ومحل خلاف بين المؤرخين والكتّاب، إلا أن تحليل أفكاره وأعماله يوضح أنه كان رجلاً مصلحاً يحمل رؤية واضحة لمواجهة الاستبداد والهيمنة الاستعمارية. لم يكن هدفه إلغاء الخلافة الإسلامية، بل سعى إلى إصلاحها من الداخل من خلال القضاء على الاستبداد وضمان أن تكون الخلافة أداة فعالة لتحقيق العدالة والنهضة في المجتمعات الإسلامية.

كان جمال الدين الأفغاني بحق رائدًا لحركة الإصلاح في العالم الإسلامي، وذلك من خلال منهجه الثوري الذي اعتمد على توعية الشعوب ودعوتها إلى المشاركة الفاعلة في الحكم. ظهر هذا المنهج جلياً في العديد من البلدان التي زارها، حيث كانت أفكاره تحفّز الناس على التغيير وتحدي الظلم. ما تركه من أعمال مثل مجلة العروة الوثقى، وما أنشأه من حركة فكرية في مصر عبر تلاميذه أمثال محمد عبده وسعد زغلول، يعكس تأثيره العميق في إرساء دعائم الفكر النهضوي الذي أصبح مصدر إلهام للأجيال اللاحقة.

سعى جمال الدين الأفغاني إلى تحقيق وحدة عربية إسلامية تكون تحت قيادة أمير قوي وعادل، مع وجود نظام حكم نيابي دستوري يضمن مشاركة الشعب في اتخاذ القرارات. كانت رؤيته للحكم تعبر عن فهم عميق لضرورة التوازن بين السلطة والمسؤولية، حيث رفض

الحكم الفردي المطلق ودعا إلى نظام يشارك فيه الشعب لتحقيق العدالة الاجتماعية والنهضة الشاملة.

أثر جمال الدين في مصر كان كبيرًا، حيث عمل على توعية الشعب وتحفيزه على مقاومة المستعمر البريطاني والنظام السياسي المستبد. أسهمت أفكاره في إثارة وعي المصريين تجاه حقوقهم وأهمية التغيير، مما جعله شخصية محورية في تاريخ الإصلاح السياسي في مصر. مع ذلك، كانت أفكاره الثورية سببًا في معاناته من النفي والطرد المستمر، حيث واجه رفضًا من الأنظمة السياسية التي رأت في أفكاره تهديدًا لاستقرارها.

يمكن القول إن جمال الدين الأفغاني كان أكثر من مجرد مفكر أو مصلح؛ لقد كان رمزًا لحركة الإصلاح في العصر الحديث. حمل رؤية شاملة للتغيير تعتمد على التعليم والتوعية والمشاركة السياسية. وبالرغم من التحديات التي واجهها، فإن إرثه الفكري والسياسي لا يزال حاضرًا، يلهم الأجيال في البحث عن العدالة والحرية والوحدة.

المصادر والمراجع

أبو رية، محمود. **جمال الدين الأفغاني (1838-1897)**. القاهرة: دار المعارف، 1961.

أبو علبة، عبد الرحيم فارس. **رموز الإصلاح الحديث**. ط.1. عمان: دار الوضاح، 2005.

الأسد أبادي، ميرزا لطف الله خان. **حقيقة جمال الدين الأفغاني**. ط.1. ترجمة عبد النعيم حسين. المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1986.

الأفغاني، جمال الدين. **العروة الوثقى**. ط.1. بيروت: دار الكتاب العربي، 1970.

الأفغاني، جمال الدين. **الأعمال الكاملة**. ط.1. تحقيق محمد عمارة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981.

الجبلاوي، محمد طاهر. **جمال الدين الأفغاني: حياته وآراءه**. مصر: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971.

حوراني، ألبرت. **الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939)**. ترجمة كريم عزقول. بيروت: د.ن.، 1997.

خوري، رئيف. **الفكر العربي الحديث**. ط.3. بيروت: دار المكشوف، 1993.

الزركلي، خير الدين. **الأعلام**. ط.16. بيروت: دار العلم للملايين، 2005.

شلش، علي. **جمال الدين الأفغاني بين دارسيه**. ط.1. بيروت: دار الشرق، 1987.

عبده، محمد. **الثأر الإسلامي: جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين**. القاهرة: دار الهلال، د.ت.

عمارة، محمد. **جمال الدين الأفغاني: موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام**. د.م.: دار المستقبل العربي، د.ت.

عمر، عمر عبد العزيز. **دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر**. بيروت: دار النهضة العربية، 1990.

عوض، كارم عبد الغفار. **جمال الدين الأفغاني: رحالة الإسلام**. ط.1. د.م.: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، الجزيرة، 2008.

قلعجي، قدري. **جمال الدين الأفغاني: حكيم الشرق**. سلسلة **أعلام الحرية**. د.م.: د.ن، د.ت.

المغربي، عبد القادر. **جمال الدين الأفغاني**. القاهرة: دار المعرفة، د.ت.